مراجعات الكتب | Book Reviews

قراءة في كتاب: Destiny Disrupted

مراجعة: هبة ماهر[1] | Heba Maher

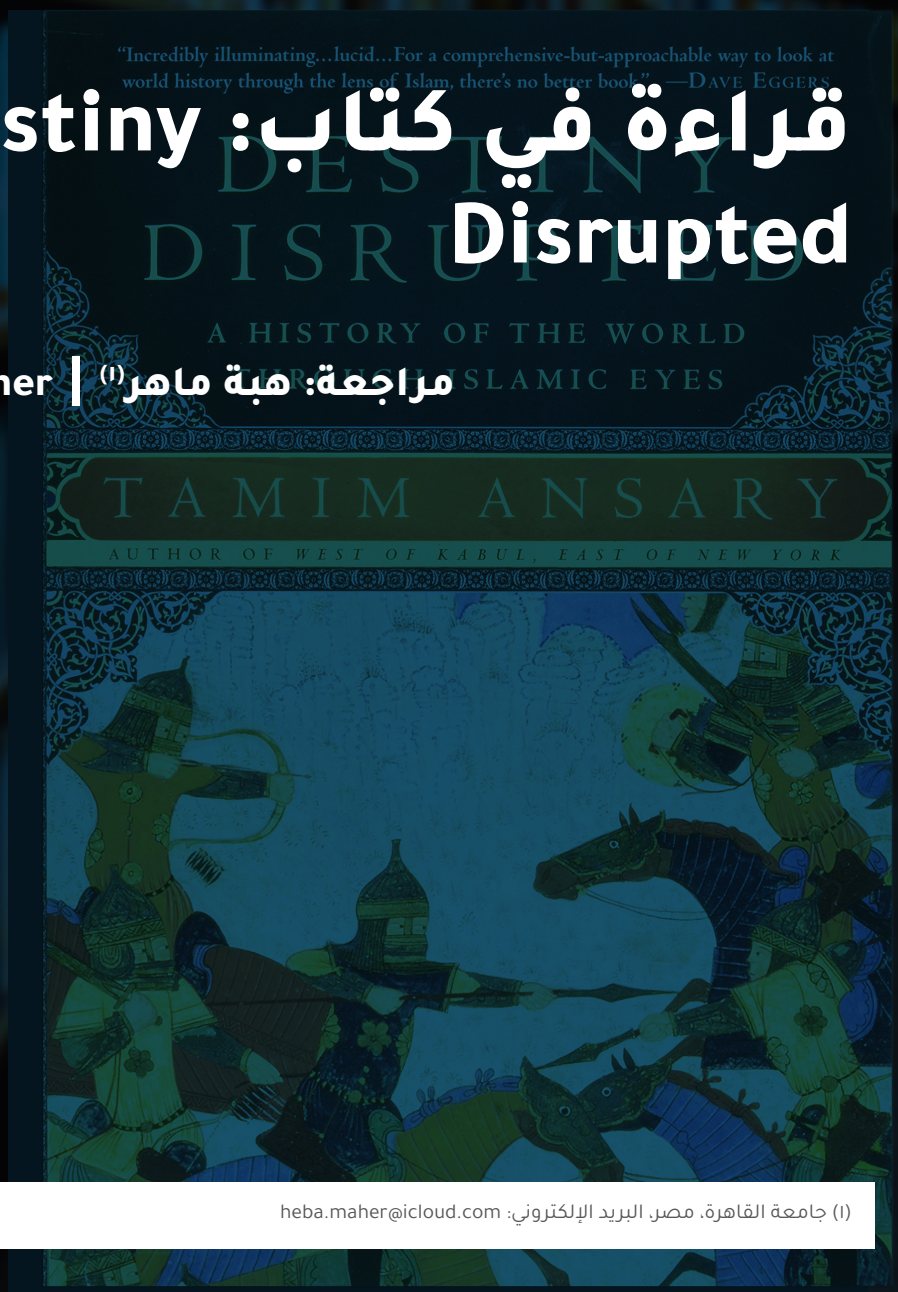

(١) جامعة القاهرة، مصر. البريد الإلكتروني: heba.maher@icloud.com

عنـوان الكتـاب: Destiny Disrupted: A history of the World Through Islamic Eyes

اسم الكاتب: Tamim Ansary

دار النشر: PublicAffairs Books

مكان النشر: الولايات المتحدة الأمريكية،

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

نبذة عن الكاتب:

تميـم أنصـاري أفغاني أمريكي، ولـد في كابـول بأفغانسـتان عـام ١٩٤٨، وهاجـر إلى الولايـات المتحـدة الأمريكية واستقر بها منذ عامه السادس عشر. اكتسب أنصاري شـهرته في أمريكا بعـد أحـداث الحـادي عشـر مـن سـبتمبر عـام ٢٠٠١ جـراء جهـوده في معارضـة قصـف أمريـكا لأفغانسـتان، وذلـك على الرغـم مـن جهره بعـداوة طالبان ومطالباتـه بتعقـب أسـامة بـن لادن.

بـدأ اهتمـام أنصاري بالإسـلام بعدمـا رأى انضمـام شـباب مـن معارفه إلى تنظيمات جهادية كالقاعدة، فبدأ في دراسة الإسـلام لفهم القوة الجاذبة لهذا الدين والتي لم تخفت مع مرور الزمان.

يعـد أنصـاري أحـد الأشـخاص الذيـن يمتلكـون إلمامًـا جيـدًا بالرؤيـة الإسـلامية وبالرؤيـة الغربيـة في الوقـت ذاتـه، وإن كانـت الثقافـة الغربيـة هي الغالبـة عليـه؛ ولـذا فإنـه يحـاول مـد جسـور التفاهـم بيـن الثقافتيـن لإزالـة التوتـر والاحتقـان بيـن العـوام مـن أبنـاء الحضارتيـن.

أتى كتابـه هـذا محاولـة لتسـليط الضـوء على تاريـخ الشـعوب الإسـلامية العريـق الـذي أُهمـل بالكليـة فـي الدراسـات الغربيـة، ولشـرح رؤى هـذه الشـعوب وأفكارها إزاء الأحـداث التي مرت بها

خلال تاريخها، بغير إخضاع هذه الرؤى للمعايير والمقاييس التفسيرية الغربية.

ومما يميز كتابه هذا عن كتب غيره من المستشرقين هو نشأة الكاتب الأولية مسلمًا في ظل شعب مسلم ذي عادات وتقاليد منبعها الدين الإسلامي، بخلاف غيره من المستشرقين الذين إما بدأ اهتمامهم بالإسلام في وقت متأخر من أعمارهم ولم تكن نشأتهم في إحدى بلاد الإسلام، أو كانت نشأتهم في إحدى بلاد الإسلام ولكنهم لم يكونوا مسلمين فلم تتحصل لهم إمكانية لفهم الإسلام من الداخل، وإنما ظلت نظرتهم لأنفسهم باعتبارهم شرقيين أو عرب فقط. وقد ظهر هذا الفارق في الكثير من تفسيرات الكاتب للأحداث حيث أخضعها لمعايير المسلمين وليس للمعايير الغربية.

عرض الكتاب:

في هذا الكتاب يقوم تميم أنصاري بطرح رؤية جديدة للتاريخ العالمي، يعمد خلالها إلى عرض جميع أحداث هذا التاريخ من وجهة نظر شعوب العالم الإسلامي، وقد أتت هذه الرؤية بديلًا للمركزية الغربية التي تنسج كتب التاريخ في الغالب على منوالها. تماشيًا مع هذا الطرح فقد اختار الكاتب أن يجعل نقطة البداية لكتابه في شبه جزيرة العرب قبيل بعثة محمد ﷺ، كما فضَّلَ أن يقتصر في عرضه هذا على الأحداث التي وقعت داخل حدود العالم الإسلامي، ولم يتناول بالتحليل أحداث التاريخ الغربي إلا حين تتشابك أحداث التاريخين، فهنا يذكر أوضاع العالم الغربي ويوضح مدى تأثر العالم الإسلامي بهذه الأوضاع.

وقد ذكر الكاتب في مقدمة كتابه السبب الذي حدا به إلى كتابة هذا التاريخ البديل، وهو ما لاحظه هو -وغيره- من هيمنة المركزية الغربية على جميع السرديات التاريخية، بحيث لا تذكر تواريخ الحضارات الموازية كالحضارة الإسلامية والحضارة الصينية وغيرهما من الحضارات الشرقية[٢]، بالرغم من حضور هذه الحضارات البارز في التاريخ العالمي، وإسهاماتها العديدة في سيرورة الإنسانية.

يقع الكتاب في ثلاثمائة ونيف وخمسين صفحة مقسمة على سبعة عشر فصلًا. يدور كل فصل حول حقبة زمنية يحددها الكاتب في عنوان الفصل. وقد أتى تقسيم الفصول تبعًا لطبيعة الأحداث أو الأفكار التي يتناولها الفصل، فلم يعمد الكاتب إلى مقياس زمني موحد لفصول كتابه؛ بل أحيانًا يتناول الفصل الواحد بضعة أعوام، وأحيانًا أخرى يتناول الفصل عدة قرون.

أهم ما يميز هذا الكتاب -في رأيي- هو أسلوب الكاتب السلس في عرض الأحداث،

(٢) يلاحظ أن نفس لفظة "الشرق" تدل على سيادة المركزية الغربية؛ إذ إن التقسيم الجغرافي إلى شرق أوسط وشرق أقصى إنما هو باعتبار موقع أوروبا.

بالإضافة إلى تحليلاته الثاقبة المبثوثة في ثنايا الكتاب، خاصة في نصفه الثاني الذي يتناول التاريخ الحديث والمعاصر، ونظرًا لمسيرة الكاتب الذاتية والعلمية فقد صار لديه إلمام جيد بالثقافة الإسلامية وكذا بالثقافة الغربية مما مكنه من عرض الأحداث بغير تحامل على أي من وجهات النظر السائدة، فنجده يذكر الحدث وتأثيره على المسلمين ثم يشير إلى الكيفية التي ينظر بها الغربيون لنفس الحدث مع إيضاح مناط الخلاف.

حرص الكاتب منذ بداية الكتاب على تغيير النمط السائد في النظر إلى العالم الإسلامي ولذا فقد صك مصطلح "العالم الوسيط" للإشارة إلى العالم الإسلامي وذلك لوقوعه بين العالم الغربي المتمثل في أوروبا والأمريكيتين وبين العالم الشرقي المتمثل في الصين والهند، كما يشير المصطلح ضمنًا إلى وساطة العالم الإسلامي بين شعوب العوالم الآنف ذكرها. وفي استخدام هذا المصطلح رفضٌ لمصطلحات غربية كالشرق الأوسط أو الشرق، حيث يتخذ المصطلح الأول من موقع أوروبا الجغرافي منطلقًا للنظر، بينما يجمع المصطلح الثاني الحضارة الإسلامية مع غيرها من الحضارات الأخرى -كالحضارة الصينية والهندية- بغير اعتبار للتباين الجذري فيما بين هذه الحضارات.

في فصول الكتاب الأولى يذكر الكاتب أهم محطات التاريخ الإسلامي بشكل مختصر، وقد لا يكون في هذه الفصول من جديد بالنسبة للمسلم إلا أنها بالنسبة لغير المسلمين تمثل عرضًا منصفا بلغة جذابة لأحداث العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين.

يبدأ التأريخ الإسلامي بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وتعد فترة حياة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين في المدينة أحد المنابع الرئيسة التي يستقي منها المسلمون معارفهم السياسية والاجتماعية، ولذا كانت لهذه الفترة مكانة مركزية لدى علماء المسلمين. ومن النقاط الهامة التي كرر الكاتب الإشارة إليها في عدة مواضع من كتابه أن الإسلام مشروع اجتماعيًا يهدف إلى إصلاح المجتمعات، وأنه بالرغم من خطاب الإسلام -كغيره من الديانات- الشخصي للأفراد، إلا أنه لا يكتفي منهم بصلاحهم الذاتي وإنما يحثهم على القيام بإصلاح مجتمعاتهم أيضًا، وهذه النقطة يُستدل لها بما في الإسلام من عبادات تعمل على تمكين المجتمعات من العناية بمصالح جميع الأفراد ومن مد أواصر الصلة بين جميع قطاعات المجتمع، ولذا لم يعرف الإسلام النظام الطبقي الذي ظهر في غيره من الحضارات، بل لم تظهر فجوة طبقية في المجتمعات الإسلامية إلا في العصر الحديث مع قدوم الاستعمار الغربي وهذا الأمر سيأتي ذكره في فصل لاحق في الكتاب.

تعرض الكاتب في هذه الفصول لحادثة السقيفة وحروب الردة والفتن التي أدت إلى مقتل عثمان وعلي رضي الله عنهما، ولكنه لم يعمد -كما يفعل المستشرقون في العادة- إلى اتهام نوايا الصحابة، بل حفظ لهم فضلهم وذكر مآثرهم مستدلًا على ذلك بما سبق وأن قدموه لخدمة الدين والتضحيات التي بذلوها.

بعد ذلك تناول الكاتب فترة الحكم الأموي وما تلاه من تغيرات اجتماعية وسياسية، كما تعرض لحادثة مقتل الحسين رضي الله عنه وما صحبه ذلك من تمكن الفكر الشيعي كفكر مستقل مضاهيًا للفكر السني. ومما يحسب للمؤلف أنه لا يكتفي بذكر الحدث مجردًا، وإنما يحرص على تحليل تداعيات ذلك الحدث الاجتماعية وما صاحبه من تغييرات على مستوى العوام وتعليل ذلك. ومن ذلك ما ذكره عند كلامه على الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي وما لحقها من عمليات تعريب لمؤسسات الحكم وأسلمة للشعوب، حيث ذكر أن من العوامل التي سهلت سيادة اللغة العربية في قارة إفريقيا وجود جذور مشتركة بين شعوب هذه المناطق وبين المسلمين[٣]، بالإضافة إلى غياب ثقافة ولغة موحدة تجمع بين شعوب هذه المناطق؛ أما في الأراضي التي كانت واقعة تحت حكم الفرس فإن الوحدة اللغوية والثقافية لهذه الشعوب حالت دون انتشار اللغة العربية في هذه المناطق.

ثم تناول الكاتب فترة الحكم العباسي في فصل مستقل، وذكر الكيفية التي وصل بها العباسيون إلى الحكم وما مثله نظام حكمهم من خرق في نظام الإسلام الاجتماعي، فلم يعمد الكاتب كما يفعل غيره من المستشرقين إلى جعل العصر العباسي درة عصور الإسلام لما شهده هذا العصر من تقدم مادي هائل، وإنما أوضح أن البذخ الذي ساد في بلاط العباسيين كان مخالفًا لما أمر به الإسلام من الاقتصاد في الملبس والمشرب.

أفرد المؤلف فصلًا مستقلا للكلام عن العلماء ودورهم في التاريخ الإسلامي وذكر ما تمتع به العلماء من استقلالية عن جهاز الحكم، كما تعرض للاختلافات الرئيسة بين الطوائف الثلاث التي آلت إليها القيادة المجتمعية، وهم العلماء والصوفية بشكل أساسي، ثم من ورائهم بدرجة أقل الفلاسفة ومن شابههم من المعتزلة. وهذا الفصل من الفصول التي تحتاج إلى قراءة ناقدة، وذلك أن المؤلف جعل حرص العلماء على حفظ عقيدة الأمة، ومحاولة إزالة الخلافات بالرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة، نوعًا من تحجيم العقل الإنساني ومصادرة الفكر الحر. كما أن المؤلف يجعل من ربط السعي الدنيوي بسؤال الغايات

(٣) يقصد بذلك الديانات الإبراهيمية.

والمآلات عرقلة لمسيرة التقدم الحضاري[٤]، وهذا يتعارض مع ما ذكره المؤلف سابقًا من أن الإسلام مشروع اجتماعيا، يهدف إلى إصلاح المجتمعات؛ فإذا ما أطلق البشر العنان لعقولهم بغير قيد من الوحي فكيف يتحقق هذا الإصلاح! إن ما يقوله المؤلف هنا يعود بالإسلام إلى أن يكون دعوة للصلاح الفردي فقط، ثم بعد تحقيق صلاح الأفراد تبطل الحاجة إلى الوحي وتشريعاته، ويقوم البشر بتسيير مجتمعاتهم وفقا لما يرونه هم حقًا.

بعد ذلك تناول الكاتب الشعوب التركية في فصل آخر بداية من دخولهم في الإسلام وحتى بروز أهميتهم على مسرح الأحداث، ومن الأمور اللافتة أنه لم ينتقد لجوء حكام المسلمين لشراء غلمان وفتية ثم تنشئتهم على القتال بل ذكر أن ذلك، أولًا كان النظام المعمول به من قبيل معظم حكام تلك الأزمنة، وثانيًا أن ذلك النظام كان وسيلة للترقي الاجتماعي لأبناء الطبقات الفقيرة؛ كما أن منع هؤلاء الجند من الزواج والإنجاب عَمِل ضمانة منعت من تحول تلك الفئة إلى طبقة مغلقة، وإنما ظلت مفتوحة أمام القادمين الجدد.

وبحلول عصر السلاجقة كانت دولة الإسلام فعليًا منقسمة إلى خلافة عباسية في بغداد، وخلافة فاطمية في مصر، وخلافة أموية في الأندلس، مع سيطرة للعنصر الفارسي في وسط آسيا. ومن النقاط التي أجاد فيها الكاتب ذكره لنقاط ضعف وقوة كل من مراكز الحكم السابقة، فلم يصرف جل عنايته إلى أحد هذه المراكز معرضًا عن أهمية ما عداه كما يميل المؤرخون في العادة أن يفعلوا، فنجد من المؤرخين من يعتنون بذكر تاريخ بغداد وما يقع تحت هيمنتها فقط معتبرين ما عداها من مراكز الحكم دول مارقة أو خائنة، ونجد منهم من يعلي من شأن تاريخ الأندلس باعتبارها مثالًا للتقدم الحضاري بغير التفات لإسهامات المناطق الأخرى.

ثم ذكر المؤلف الهجمات الشرسة التي تعرض لها العالم الإسلامي من جهة الغرب -متمثلة في الحملات الصليبية- ومن جهة الشرق -متمثلة في الغزو المغولي، وما تلا تلك الهجمات من تغيرات عالمية؛ إذ مثلت تلك الهجمات إحدى فترات تقاطع تاريخ العالم الوسيط بالعالم الشرقي والغربي. ولم يَفُتِ المؤلف الإشارة إلى اختلاف موازين القوى بين جميع هذه الفرق المتقاتلة، فبينما كانت الغلبة -ظاهريًا- للمسلمين على الإفرنج[٥] إلا أن إمارات الإفرنج ظلت مستعصية أمام المسلمين زمنًا طويلًا؛ بينما مع المغول كان الأمر معكوسًا؛ إذ تمكن المغول من اكتساح العالم الإسلامي بسهولة فائقة في البداية، ولكنهم سرعان ما اختاروا الاندماج؛ فصاروا أحد شعوب المسلمين. وبدخول المغول في الإسلام

(٤) سيأتي مزيد بيان لهذه النقطة لاحقًا.

(٥) وذلك أن أوروبا لم تكن قد خرجت بعد من حالة التشرذم التي كانت فيها منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية.

ظهر مركز قوة جديد في العالم الإسلامي وهو شبه القارة الهندية التي قام المغول بفتحها ونشر الإسلام فيها.

ومن النقاط المهمة التي طرحها المؤلف هو تطور الأساليب القتالية آنذاك، الأمر الذي أدى إلى سحب البساط من تحت أرجل الفرسان، وبالتالي إلى انهيار النظام الإقطاعي في الغرب، وبداية عصر جديد، كان للعوام فيه دورًا بارزًا في تسيير الأحداث.

كذلك تناول المؤلف الآثار الاجتماعية والفكرية التي ظهرت جراء الهزائم العسكرية التي تعرض لها المسلمين في تلك الحقبة؛ إذ ظهرت العديد من التيارات الإصلاحية التي سعت إلى تفسير هذه الهزائم ومن ثم علاج أسبابها.

وفي العادة، فإن المجتمعات عندما تتعرض لمثل هذه الهزائم التي تودي بالنظم الحاكمة يبرز فيها الجماعات المنظمة؛ وفي العالم الإسلامي كانت الجماعات الصوفية أكثر هذه الجماعات تنظيمًا، ولذا صارت ذات أثر بارز في تلك الحقبة. ولم يفت المؤلف الإشارة إلى فارق أساسي بين الجماعات الصوفية في بلاد الإسلام وبين الرهبان في الغرب؛ إذ بينما يعمد الأولون إلى الاختلاط بالعوام لدعوتهم، يقوم الآخرون بالانعزال عن البشر أملًا في تحقيق خلاصهم الفردي. وقد كان انتشار الإسلام في آسيا الصغرى وفتح القسطنطينية على يد القبائل التركية أحد أبرز آثار هذه الجماعات الصوفية.

في تلك الأثناء كانت أوروبا قد بدأت أولى خطوات نهضتها، وذلك بعد احتكاكها بالعالم الإسلامي إبان الحروب الصليبية. وكما قيل فإن للاقتصاد دورًا أساسيًا في تسيير مجرى التاريخ قل من يلتفت إليه، ومصداق ذلك هنا أن الباعث الأولي للأوروبيين كان الوصول إلى بضائع الشرق الأقصى، التي كانت قد راجت لديهم إبان الحملات الصليبية، مباشرة بغير الاحتياج إلى المرور بأرض المسلمين لخفض التكلفة ومن ثم زيادة الأرباح. ومن هنا بدأت حركة الكشوف الجغرافية وما تبعها من تغييرات هائلة على مستوى الشعوب والدول. وفي محاولة من المؤلف لتفسير نهضة أوروبا العلمية بعد خروجها من عباءة الكنيسة، ذكر أن أحد عوامل تقييد الفكر العملي هو سؤال الغايات، وأن الأوروبيين فقط عندما تحرروا من البحث في غايات الأفعال وما تفيده بالنسبة للخلاص الاخروي، تمكنوا من تحقيق نهضة مادية؛ وأن هذا التحرر لم يتحقق إلا بعد حركة الإصلاح الديني التي حررت الأفراد من سلطان الكنيسة ورغبات القساوسة. وما ذكره المؤلف يعني أن بذور العلمانية بُذرت مع مارتن لوثر؛ إذ هو أول من نادي بأن يكون الدين شأنًا خاصًا بين العبد وبين الرب، وبأن لا يجعل لمؤسسة دنيوية وصاية على

عقائد العباد[٦]. وجعل إهمال سؤال الغايات علة للنهضة الأوروبية أمر بحاجة إلى نظر من جهتين: أولًا من جهة صحته؛ إذ يمكن أن يقال إن مثل هذه النهضة لم تظهر عند الشعوب الوثنية التي لا يظن بها اعتناء بسؤال الغايات؛ وثانيًا من جهة نتائجه؛ إذ إن بإهمالهم لسؤال الغايات ارتكب الأوروبيون على مدار عدة قرون فظائع تقشعر لها الأبدان، ولا يصح إهمال هذا الجانب عند الحديث عن نهضتهم المادية.

كان جل العالم الإسلامي آنذاك خاضعًا للدولة العثمانية، ومرة أخرى لعب الاقتصاد دورًا هائلًا في التاريخ؛ إذ إن بدايات العلاقات بين العثمانيين والأوروبيين كانت تدور حول الاتفاقات التجارية، ولكن تفوق الأوروبيين المادي جعل لهم الغلبة الاقتصادية أيضًا، حيث إن قدراتهم التصنيعية كانت تفوق قدرات الشعوب المسلمة، كما أن مستعمراتهم كانت تمدهم بالمواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة مما جعل الميزان التجاري يميل لكفتهم. لمعالجة هذه الأوضاع، لجأ العثمانيون إلى الحلول الجاهزة فقاموا بإصلاحات على النمط الغربي، الأمر الذي تسبب في حدوث قطيعة مجتمعية بين العوام وبين النخب في البلاد الإسلامية لأول مرة.

بالإضافة إلى العثمانيين، كانت هناك مراكز قوة أخرى في العالم الإسلامي منها الدولة الصفوية في إيران وسلطنة المغول في الهند؛ وقد عملت بريطانيا على نشر نفوذها في المنطقتين، مستهلة ذلك باتفاقات تجارية ثم بعد ذلك عمدت إلى التدخل المباشر سواء العسكري كما في حالة الهند، أو السياسي كما في حالة إيران، وما تبع ذلك من صراع بين إنجلترا وروسيا على مناطق نفوذ في منطقة أفغانستان فيما عرف تاريخيا باللعبة الكبرى.

كان من نتائج الضعف العام الذي حل بالعالم الإسلامي أن ظهرت العديد من الحركات الإصلاحية، كان أبرزها على الإطلاق حركة محمد بن عبد الوهاب في شبه جزيرة العرب، وحركة عليكرة في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى دعوة جمال الدين الأفغاني. وقد تناول المؤلف الثلاث حركات ببعض التفصيل موضحًا الأسس التي قامت عليها وأهم ما أنتجته من آثار. وبالرغم من اختلاف الأسماء أو الجهات إلا أن المبادئ التي دعت إليها حركات الإصلاح في البلاد الإسلامية كانت ثلاث: التصنيع، والدستورية، والقومية، وقد تناول المؤلف هذه المبادئ في فصل مستقل موضحًا أن سبب فشلها في تحقيق نهضة في العالم الإسلامي بالرغم من نجاحها في

(٦) كتاب The Unintended Reformation يدور حول نفس هذه الفكرة.

ذلك في أوروبا هو اختلاف الظرف التاريخي والاجتماعي بين المنطقتين. ومن جديد تبرز هنا أهمية تحليلات المؤلف حيث إنه أوضح طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في البلاد الإسلامية وكيفية تأثرها سلبيًا بهذه المبادئ، كما ذكر أن محاولة فرض هذه المبادئ أدى إلى خلخلة النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في الدولة العثمانية، مما أنتج فوضى وفسادًا بدلًا من الإصلاح المنشود.

بعد ذلك مضى الكلام عن أوضاع العالم الإسلامي قبيل الحرب العالمية الأولى وعقبها، وآثار زوال الدولة العثمانية، وما استتبعه ذلك من انقسام الدول الإسلامية وفرض الدول الغربية لهيمنتها على عامة بلاد الإسلام، ثم بعد ذلك سيطرة العلمانيين على مقاليد الحكم في جل هذه الدول بعد نجاح حركات التحرر من الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

بعد ذلك وصل الكاتب إلى لحظة من اللحظات الفارقة في حياة المجتمعات الإسلامية في القرن الحادي والعشرين وهي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وحاول تحليل سبب عودة الإسلام بقوة على الساحة العالمية بعد غفوة طويلة؛ وذلك أن جل المبادئ التي اتخذت وسيلة للإصلاح أثبتت فشلها، على حين أن انتصار الأفغان في حربهم ضد السوفييت، الذي كان الإسلام حاضرًا فيه بقوة، كان بمثابة إشارة إلى السبيل الأمثل للإصلاح. وقد ذكر المؤلف أنه لطالما اتخذ المسلمون من انتصاراتهم على أعدائهم في المعارك دليلًا على تأييد الله تعالى لهم ومن ثم على صحة ما هم عليه، وبين تأثير هذه الفكرة في أزمنة الانتصارات وكذا في أزمنة الهزائم. وهنا يحتاج الأمر إلى بعض الإيضاح: فأما إن جعلت انتصارات المسلمين سببًا لزيادة عدد الداخلين في الدين فهذا أمر لا مندوحة عنه، حيث إن البشر يميلون جهة المنتصر؛ وأما إن ظُن أن هذه الانتصارات هي الدليل على صحة الدين فهذا لم يقل به المسلمون من قبل، بل أن نصوص الوحي مستفيضة في بيان أن عطاء الدنيا ليست دليلًا على رضا الله تعالى، كما أن الانتصارات في الدنيا لم يذكرها أحد في براهين الإيمان.